2- المقال

مقدمة:

عرف الفكر الفلسفي الإنساني ومنذ الإرهاصات الأولى لظهوره، عدة مراحل وأطوار في حركته التاريخية، إذ كان لكل مرحلة من المراحل خصائصها ومميزاتها التي تميزها عن الأخرى، من حيث الإطار الزماني والمكاني من جهة، وطبيعة الفلاسفة المفكرين الذين عايشوها من جهة أخرى.

ويجمع جل المؤرخين والدارسين للفكر الفلسفي أو الفلسفة على أن الحضارات الشرقية القديمة هي نقطة الانطلاق لهذا الفكر الفلسفي، أو على الأقل المحاولات الأولى في تقصي كل مباحث المعرفة التي يمكن للإنسان الوصول إليها، بغض النظر عن إن كانت هاته المحاولات ذات صبغة فلسفية حقيقية أم لا، لأن ذلك موضوع آخر انقسم فيه الباحثين إلى اتجاهين، الأول يرى أن ميلاد الفلسفة بمعناها الحق قد وُلد بين أحضان فلاسفة (ملطية) "طاليس- أنكسمندر- أنكسمانس) في القرن السادس قبل الميلاد، والثاني يرى أن الفلسفة تمتد جذورها إلى الفكر الشرقي القديم، (الفكر الهندي القديم- الفكر الصيني القديم- الفكر البابلي و المصري القديم...).

وبالحديث عن الحضارات الشرقية القديمة، لا يمكن إغفال وجهة نظرنا عن إحدى أهم هاته الحضارات التي خطت سطوراً من ذهب في تاريخ الفلسفة، وهي (الحضارة المصرية القديمة)، من خلال ما قدمته من تفسيرات وتصورات في الطبيعة وأصل الوجود كأول مبحث من مباحث الفكر الفلسفي الإنساني فالعلم الطبيعي كان يُعادل في ذلك الزمان وزن (الفيزياء أو الكيمياء) مثلاً في عصرنا الحالي، حيث أصبح كل من يخوض في هذا المبحث الفلسفي، سواءً كان على المستوى الشخصي كفيلسوف مفكر، أو يُمثل قُطرًا جغرافيًا معينًا، إنما يُعبر عن نوع من أنواع التحضر والرقي الفكري، والدليل على ذلك، أن الدارسين لإشكالية أصل الفلسفة السابق ذكرها، استخدموا حضور مبحث الطبيعة كمعيار لحضور الفلسفة بمعناها الحقيقي. لأن إعمال الفكر والتأمل العقلي، لا يمكن حصره بأي حال من الأحوال في رقعة جغرافية معينة، فالإنسان الأول، تأمل مُحيطه وعالمه الطبيعي الذي يعيش فيه، وما يحتويه من جميع (الظواهر الطبيعية)، فكان لزامًا عليه فهمها وتفسيرها ليتجنب شرها، وكما قلنا أن مراحل الفكر الفلسفي الإنساني تختلف باختلاف مفكريها وفلاسفتها، فها نحن هما بصدد البحث في مفهوم الطبيعة في الحضارة المصرية القديمة.

فكيف تصوّر قدماء المصريون أصل الوجود والعالم الطبيعي؟

مفهوم الطبيعة في الفكر المصري القديم:

خصص إنسان مصر القديمة حيزاً كبيراً لفلسفة الطبيعة و تفسير نشأة الوجود، من خلال أربع تفسيرات كبرى قدمها أهالي أربع مدن كبرى في مصر القديمة، هي **(أون)** أو مدينة الشمس **(هليوبوليس)**، و مدينة **(أونو)** أو مدينة الأشمونيين الحالية، و مدينة **(منف)**، و أخيراً مدينة **(واست)** أو مدينة الأقصر الحالية، مجسدين إياها في جملة من التساؤلات: **كيف جاء هو و هذا العالم إلى الوجود؟ و من صنعه و صنع هذا العالم؟ و ما هي القوى التي تتحكم في حركته وفي حركة العالم؟كيف يمكنه أن يرضي هذه القوى الطبيعية المختلفة و يتجنب خطرها و شرورها؟ و كيف يمكن استجلاب خيرها و ينال رضاها؟[1]**

1- المذهب الشمسي:

ينسب هذا المذهب إلى أهالي مدينة **(أون هليوبوليس)**، مدينة الشمس و هي مدينة **(عين الشمس)** الحالية، و يعد أقدم مذهب معروف في تفسير نشأة الوجود، و ربما يرجع هذا المذهب إلى ما قبل التاريخ المكتوب للحضارة المصرية القديمة، لكن أقدم تسجيل لنص هذا التفسير شبه المتكامل، وجد داخل هرمي **(مرن رع)** و **(نفر كارع)**، من الأسرة السادسة، أي يرجع إلى حوالي القرن الرابع و العشرين قبل الميلاد **(ق 24 ق.م)[2]**

و قد ورد في هذا النص:

" يا آتوم- خبرر أنت على القمة على التل على (الهيولى)، ظهرت كالطائر "بن" الخاص بالحجر "بن" في منزل "بن هليوبوليس"، بصقت ما كان (شو) و (تفنوة) و (جب) و (نوة) و (أوزيريس) و (إيزيس) و (ست) و (نفتيس)، الذين ولدهم آتوم باسطين إلى مدى بعيد قبله، يفرح عند إنجابه إياك في أسمك الأقواس التسعة، يا ليت ألا يكون بينكم من سيبتعد بنفسه عن آتوم، لأنه يحمي هذا الملك نفر- كا- رع، لأنه يحمي هرم هذا الملك نفر- كا- رع، لأنه يحمي عمله الإنشائي هذا من كل الآلهة و من كل الموتى و لأنه يحمي حتى لا يحدث له أي شيء مكروه عبر طريق الأبدية"[3]

1- محمد غلاب، الفلسفة الشرقية، مكتبة البيت الأخضر، القاهرة (مصر)، (ط1)، 1937، ص ص (51-52).
2- عبد العزيز صالح، فلسفات نشأة الوجود في مصر القديمة، العدد 26 من مجلة "المجلة"، القاهرة (مصر)، فبراير 1959، ص (23).
3- j.h.breasted :devlepment of relegion and thought in ancient egypt. New York. 1912.

- لقد تأمل أصحاب هذا النص في نشأة الوجود و بدأ الخليقة، و انتهوا إلى القول بماضي سحيق قديم لم تكن فيه أرض و لا سماء و لا كائنات و لا بشر، و إنما عدم مطلق، و اتفقوا مع القائلين ممن سبقهم بأن ذلك العدم المطلق لم يكن يشغله سوى كيان مائي لا نهائي، ذلك الذي أطلقوا عليه اسم **"نون"**، و قد أضافوا أنه في حقبة بعيدة ظهر في هذا الكيان المائي العظيم روح إلهي أزلي خالق هو **"أتوم"**، و أتوم لفظ مصري يجمع بين ضدين من المعاني، معنى **(العدم)** تكنية عن نشأة صاحبه من العدم، و معنى **(الشمول و الاكتمال)** تكنية عما أرادوا تصوير الإله به من قدرة و جلال.[1]

فإذا كانت الحروف الأصلية في اسم (أتوم Atoum) الإله الأزلي، هي بعينها الحروف الأصلية في الفعل **"تمَّ كمل"** فيكون مرجع ذلك إلى أن (أتوم Atoum) هو الإله الذي أتمَّ نفسه بذاته، بخلق نفسه أولًا ثم خلق العالم بعد ذلك.[2]

وبذلك يكون، **"أتوم"** المعبود الرئيسي لمدينة **(هليوبوليس)** مثَّلهُ المصريون على هيئة آدمي يحمل فوق رأسه قرص الشمس، واعتقد الناس أنَّه خلق نفسه من نفسه على قمة التل الأزلي الذي انحسرت عنه مياه المحيط اللانهائي، ومن ثم خلق من نفسه معبودين هما **(شو وتفنوت)**، تزاوجا وأنجبا **(جب ونوت)** الذين تزاوجا وأنجبا أربع معبودات: **(أوزيريس- إيزيس- ست ونفتيس)**، وأنجب **(أوزيريس وإيزيس)** المعبود **(حورس)**، وهكذا تكوَّن **"تاسوع هليوبوليس"** الذي أنجبه الإله الأول **(أتوم)**، وكذلك أخذت **"هليوبوليس"** بعبادة قرص الشمس تحت اسم **(رع)** واندمج الإلهان.[3]

وقد ظهر **"أتوم"** أول ما ظهر على قمة تلك الجزيرة المائية الضخمة، و كان الرمز الذي يعبر عن (التل) أو (الرابية) في اللغة (الهيروغريفية)، و يعني أيضاً **(ظهور مجيد)**، و رسمه مرتفع محدودب، تنطلق منه أشعة الشمس صعداً حتى يصور معجزة ظهور الإله الخالق لأول مرة.[4]

ومما تقدم، يتضح لنا جلياً أن مفكري المذهب الشمسي كانوا يقرون بوجود العماء أو "الكاوس" أو كما يسميه البعض باللغة الفلسفية "اللاوجود" أو كما سموه "نون" الذي كان يكتسيه الماء، لكن أصحاب المذهب الشمسي حسب ما رأينا كانوا أذكياء، لأنهم فصلوا بين هذا الكيان المائي العظيم وبين ظهور إلههم "أتوم"، وبالتالي يتحلى بصفة الربوبية، فالإله الواحد الأوحد عندهم هو "أتوم"، وكان إقرارهم بـ"نون" لتعظيم شأن الإله "أتوم" فبظهوره انتقل الوجود من العماء والفوضى إلى الترتيب والنظام.

1- عبد العزيز صالح، فلسفات نشأة الوجود في مصر القديمة، ص (33).

2- فرونسوا ديماس، آلهة مصر، ترجمة: زكي سوس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة (مصر)، (د.ط)، 1998، ص(31).

3- سمير أديب، موسوعة الحضارة المصرية القديمة، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة (مصر)، (ط1)، 2000، ص(33).

4- جون ولسن، ما قبل الفلسفة، ترجمة: جبرا إبراهيم جبرا، منشورات دار مكتبة الحياة، بغداد (العراق)، (ط1)، 1960، ص (67).

فقد ظهر الإله **"أتوم"** الأول العظيم منفرداً بوحدانيته على تلك الرابية أو على تلك الهيولى التي لا شكل لها، حتى ذرأ أو أوجد من نفسه أول عنصرين من عناصر الوجود، أحدهما ذكر تكفل بأمر الفضاء و الهواء و النور عرف باسم **(شو)**، و الآخر أنثى تكفلت بأمر الرطوبة و الندى عرفت باسم **(تفنوة)** و اختلط العنصران أو الروحان الإلهيان و تفاعلا أو تزاوجا على حد تعبير الإنسان المصري القديم، فتولد عنهما بقية **"التاسوع الإلهي العظيم"**، حيث ظهر بعدهما عنصران جديدان، أحدهما ذكر تكفل بأمر الأرض و سمي **(جب)**، و الأخرى أنثى تكفلت بأمر السماء و عرفت باسم **(نوة)**، و قد كانت السماء و الأرض في بداية أمرها متصلين جسداً و روحا ًإلى أن أذن الإله الخالق أن يبزغ من بينهما فجر الحياة، فأوحى إلى **"شو"** أن يفصل بينهما، فرفع **"شو"** السماء عن الأرض و نهض بها إلى أعلى علين، ثم ملأ الفراغ بينهما و بين الأرض بما كان يحيط به و يصدر عنه من هواء و ضياء.[1]

نجد أن **(أتوم)** إله الشمس الذي كان موجوداً في العماء الأزلي، كان موجوداً كذلك مع استحداث وتطور الترتيب المنظم للكون، وفي هذه المرحلة يضطلع **(أتوم)** بدور خالق جميع الأرباب، وأسفرت عملية الخلق هذه في رؤية الإنسان لها عما يسمى:

أ- التاسوع أو وحدة الأرباب التسع في ربوبية واحدة.

ب- مبدأ الصانع البارئ.

ج- مبدأ الأرباب المخلوقة.

د- مبدأ المحرك غير المتحرك.

ه- مبدأ الأضداد.

و- الحضور في الكل والمعرفة المحيطة بالكل.[2]

تصور علماء اللاهوت في **"هليوبوليس"** إلههم **"أتوم"** في صورة خالق ذاته، إنه نجح في بادئ ذي بدء خلق نفسه بنفسه، وكان هذا نهجاً للتعبير عن أبديته. وكان من صفاته "ذلك الذي جاء للوجود من تلقاء ذاته". غير أن سيطرة الشكل الإنساني التلقائية على الفكر قد دفع بالكهنة إلى تصور عملية القران بوصفها حلاً لخروج الإله من عزلته وإحاطة نفسه بكائنات أخرى.[3]

[1]- مصطفى النشار، المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة (مصر)، (ط1)، 1997، ص (56،55).

[2]- جورج جيمس، التراث المسروق (الفلسفة اليونانية فلسفة مصرية مسروقة)، ترجمة: شوقي جلال، المجلس الأعلى للثقافة، الإسكندرية (مصر) (د.ط)، 1996، ص (138،137).

[3]- فرونسوا ديماس، آلهة مصر، ص (33).

ذلك كان الوضع الأول الذي ظهر عليه الوجود، حيث لم يكن فيه إلا هؤلاء الأرباب الكبار، و كانت هيئة الوجود بهذا الشكل مهيئة لوجود الكائنات الحية و الإنسان، فاستكمل الخلق بأن تولد عن الإلهين السابقين أربعة آخرين، ذكران هما **(أوزوريس)** الذي تكفل في الأرض بأمر الفيضان و الخصب و النمو، و **(ست)** الذي تكفل بأمر أمطار السماء و رعدها و أعاصيرها، و أنثيان ارتبطت كل واحدة منهما بزوجها هما **(إيزيس)** التي ارتبطت ب **(أوزوريس)** و **(نفتيس)** التي ارتبطت ب **(ست)**، و بهذا اكتمل التاسوع الإلهي العظيم الذي عد أصل الوجود بكل ما فيه من عوالم و كائنات حية و جماد.[1]

و قد تباينت آراء أصحاب هذا المذهب حول الطريقة التي ذرأ بها **"أتوم"** مخلوقاته الأوائل، لا سيما **(شو و تفنوة)**، فقال بعضهم إنه خلقها عن طريق (الاستمناء أو ماء اللقاح) كما يُخلق بنو البشر عادة، و قال آخرون بأنه خلقهما عن طريق (السعال أو البصق)، و قد استفاد الآخرون من المدلول اللفظي للاسمين **(شو و تفنوة)**، و من قدرتهم على التأويل العقلي، فقربوا بين كلمة **"شو"** و بين الصوت الذي يصدر عن الفم إذا نفخ و الأنف إذا عطس، كما قربوا بين كلمة **"تفنوة"** و بين الصوت الذي يصدر عن الفم إذا بصق، و انتهوا من محاولتهم التأويلية هذه إلى أن ربهم الخالق **"أتوم"** نفخ ذات مرة أو عطس عن قصد فصدر عنه **"شو"** روح الهواء، و تفل مرة أخرى عن قصد فصدرت **"تفنوة"** روح الندى و الرطوبة.[2]

و لما ذاع هذا المذهب و انتشر، كثرت التفسيرات و التفريعات التي تفرعت عن المذهب الرئيسي، و كان أبرز التطورات التي لحقت به، ذلك التفسير الذي ربط أصحابه بين الإله **(أتوم)** و الإله **(رع)**، الذي كان إلهاً يعبد و يدين به الكثيرون، مما اضطر معه أهالي مدينة **"أون"** أن يجددوا في عقيدتهم الدينية و الفلسفية، و أن يقرنوا **(رع بأتوم)**، و قد حدث هذا التجديد في عصر الدولة الوسطى، أي حوالي عام (2000ق.م) على وجه التقريب، و قد عبر نص من الفصل السابع عشر من كتاب "الموتى"، قد كتب فيما بين الأسرة الثامنة عشر إلى الأسرة الحادية و العشرين عن هذا التطور، حيث جاء فيه:

" إني الإله أتوم في شروقه الواحد الوحيد....أتيت إلى الوجود في "نون"...إني "رع" الذي نهض في البدء و حكم ما قد صنع...إني الإله العظيم الذي أولد نفسه نظير "نون" الذي صاغ أسماء الآلهة، ليوجدوا كآلهة، من يكون هذا إذن؟ إنه "رع" خالق أسماء أعضائه الذين أتوا في صورة الآلهة في موكب "رع" إني أنا هو في الصدارة من بين الآلهة، من يكون هذا إذن؟ إنه "أتوم" في قرصه أو (كما يقول آخرون) إنه "رع"".[3]

[1]- مصطفى النشار، المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية، ص (56،57).

[2]- جفري بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب القديمة، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، سلسلة عالم المعرفة، العدد 173، الكويت، ماي 1993 ص (46).

[3]- مصطفى النشار، المرجع نفسه، ص (57،58).

لقد ارتبط الإله "أتوم" بـ"رع" في هذا النص و أمثاله ارتباطاً لا ينفصم سواءاً من جانب أنصار "أتوم" من أصحاب التفسيرات الأولى للوجود عبر "أتوم" وحده، أو من جانب أنصار "رع" الذين حاولوا قدر استطاعتهم أن يلتمسوا الأسباب التي تربط بين إلههم و بين "أتوم"، فبدا "رع" و كأنه ليس إلهاً جديداً يضاف إلى "أتوم" بل هو "أتوم" نفسه، ذلك الإله الخالق القديم، الذي شاءت إرادته أن يتجلى على الناس في هيئة "رع" إله الشمس، و أن ينير العالمين بأفقه العظيم.[1]

كان قدماء المصريين يضفون على ما نطلق عليه مبدأ (تماثل الشخصية)، إفاضة أوسع مدى عن مفهومنا، بما لا يقاس، وفيما يبدو، لم يفصلو فكرة المشاركة التي تسمح دون سواها، بتوطيد الروابط بين الجواهر المتميّزة، وهم يذهبون بعيداً في مجال **"تماثل الشخصيات"** هذا حتى يصل الأمر بهم فيه إلى ضمان المحافظة على كل التفسيرات الدينية التي يضعونها جنباً إلى جنب في رعاية، دون إحلال بعضها محل البعض الآخر، إن هذا يؤدي بنا إلى الظن بأنهم كانوا يعتبرون كلاً منها صالحاً على طريقتهم.[2]

وكتقييم لتصورات حكماء المذهب الشمسي، يمكننا القول أنهم قدموا تفسيرا في الفلسفة الطبيعية ونشأة الوجود، حيث جسدوه في الإله **"أتوم"** كمبدأ أول للوجود من حيث أنه بارئه، وبذلك يكون هذا التصور ألوهيا ذات صبغة معنوية أو تجريدية أو غيبية إن صح لنا ذلك، لكن أهم ما يمكننا ملاحظته هو أن هذا التصور يوحي إلى أبعاد أخرى غير مجرد التفسير العلمي أو الفكري، فكان يحمل أبعاد أخرى تتعدى الأبعاد الفكرية الفلسفية، فلم يكن الإله عندهم يكتسي صفة الألوهية كقداسة بل كان وسيلة للوصول لغايات يعرفها أصحاب القرار في اختيار الإله المناسب في الوقت المناسب من الكهنة وفقهاء الدين عندهم، وربما أكبر دليل على كلامنا هذا هو عدم الثبات في اتباع إله واحد واقتران الإله **"أتوم"** بالإله **"رع". فما هي الأبعاد الأخرى التي تتعدى الأبعاد الفكرية الفلسفية في هذا الشأن؟**

التاسوع الإلهي العظيم

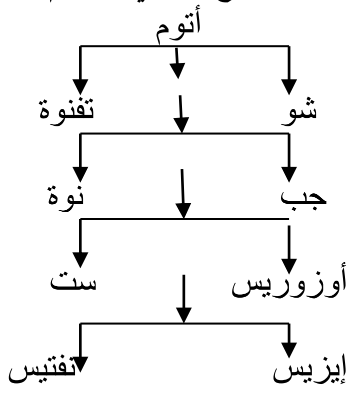

[1]- عبد العزيز صالح، فلسفات نشأة الوجود في مصر القديمة، ص (36).
[2]- فرونسوا ديماس، آلهة مصر، ص (33).

*** المذهب الأشموني:**

- هو نسبة إلى مدينة الأشمونيين الحالية في مصر الوسطى، و كانت تعرف في الزمن القديم ب **(أونو)** أو **(هرموبوليس)**، فبداية هذا التفسير الجديد لأصل الوجود و العالم الطبيعي، فيرجع إلى الجدل الذي كثر حول المذهب الشمسي في المدن المصرية المختلفة، و إلى محاولة حكماء مدينة (أونو) أن يناهضوا هذا المذهب، وربما يكون ذلك وراء أسباب سياسية تمثلت في نوع من الانشقاق السياسي الذي عز معه على حكماء المدينة أن يظلوا أتباعاً لمذهب منافسيهم، و من ثم فقد أعلنوها حرباً في السياسة و الدين و الفكر في آن واحد.[1]

و قد حاول هؤلاء الحكماء في البداية أن يشككوا في بعض عناصر المذهب الشمسي، متسائلين فيما بينهم إذا كان "رع أتوم" قد خرج أصلاً من "نون" كما قال أتباعه، أفلا يعتبر بذلك ولداً "للنون"؟ و إذا كان كذلك، ألم يكن من المفروض أن يتوفر "لنون" طرفان للإنجاب؟ و ما الذي كان يحيط ب"نون" قبل أن ينجب ولده؟ و كانت له رغبة حقيقية في ذلك؟[2]

و بعد هذا التشكيك و تلك التساؤلات كان على مفكري (أونو) أن يقدموا تصورهم المثالي للوجود، و كيفية نشأة العالم، فقالوا بأن العالم بصورته الحالية تقدمته أربع عناصر: **(ماء كثيف- ظلام محيط – قدرة منطلقة دافعة وعنصر لطيف لا يُرى)**، و قدروا أن كُلاً من هذه العناصر الأربعة تكفل به توءمان يتفقان في الطابع و يختلفان في الجنس، أحدهما مذكر وهو الأصل، و الآخر مؤنث و هو الفرع، و أنه توفر لكل من التوءم روح ربانية منفصلة، و ذلك مما جعل منها ثمانية، هذه هي عناصر الوجود الأساسية عند الاشمونيين، و هذا هو أصل **"الثامون"** الذي آمنوا به، لكن السؤال الهام هنا هو: **- كيف ردوا العالم إلى هذه العناصر؟** أو بمعنى آخر: **- هل فسروا نشأة الوجود و الكائنات عن هذا الثامون؟**

لقد أفاض التوءم الأول أو الروح الأول في البداية محيطاً مائياً كثيفاً، استقر فيه و اتخذ مظهراً لوجوده، و تسمى معه باسم **"نون"**، و استقرت معه أنثى توائمه اشتقوا اسمها من اسمه فدعوها **"ناونت"**، ثم أحاط الروح الثالث نفسه بظلام كثيف اتخذه مظهراً لوجوده و استقر فيه و تسمى معه باسم **"كوك"**، و بنفس الطريقة استقرت معه أنثى تماثله اشتق اسمها من اسمه فسميت **"كاوكت"**، أما الروح الخامس، فقد تمثل في تلك القدرة المنطلقة الدافعة التي اشتق أصحاب هذا المذهب اسمها من لفظ يدل على الحركة المماثلة لاندفاع الأمواج أو انسياب المياه فسموها **"حوح"**، ثم افترضوا وجود الأنثى التي تقاربه و اشتقوا اسمها من اسمه فسميت **"حاوحت".**[3]

[1]- مصطفى النشار، المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية، ص (60،59).
[2]- عبد العزيز صالح، فلسفات نشأة الوجود في مصر القديمة، ص (37).
[3]- مصطفى النشار، المرجع نفسه، ص (61،60).

أما العنصر أو الروح السابع فهو العنصر اللطيف الذي لا يُرى أي "الهواء"، و قد سموه بأسماء مختلفة منها **"تنموا"** أو **"تياو"** و أحياناً **"جرح"** أو **"آمون"**، و افترضوا له أنثى تماثله و جعلوا اسمها مشتقاً من كل المسميات السابقة و أشهرها اسم **"أماونت"**.[1]

و قد تصوروا بعد ذلك، أنه في فترة ما تجمعت هذه العناصر أو الأرواح الثمانية بما فيها من ذكر و أنثى- و شاءت أن تغير ما هي فيه من كيان قديم بكيان آخر جديد، فتعاونت فيما بينها على خلق **"دحية"** عظيمة ووضعها فوق رابية عالية في مدينة "أونو"، ولما انشقت "الدحية" خرج منها كائن جديد لم يكن في حقيقة أمره إلا الإله "رع- أتوم"، إله النور أو إله الشمس، ذلك الإله الذي ظن أصحاب المذهب الشمسي أنه وُجد من لا شيء، و منذ ظهور الإله "رع- أتوم"، أصبح العالم مهيئاً لظهور الكائنات ووجود البشر.[2]

أما **(مصطفى النشار)**، فقد رأى أن الاختلاف بين المذهب الشمسي و المذهب الأشموني يتمثل في أمرين أساسيين:

" أولهما هو الاختلاف حول أصل الإله (أتوم- رع)، فبينما يُؤمن أنصار المذهب الأول بأنه قد أوجد نفسه من عدم، يؤمن أنصار المذهب الثاني بأنه قد جاء بعد "الثامون"، و من تعاون تلك العناصر أو الأرواح الثمانية في خلق تلك "الدحية" التي انشقت فخرج منها الإله.

و ثانيهما يتمثل في الاختلاف حول العناصر الأساسية للوجود، فبينما جاء التصور الشمسي واضحاً في تأليه العناصر المختلفة للوجود و بيان كيف أتى كل زوج منها عن الزوج السابق و أن الجميع قد أتوا بفضل الإله (أتوم) باعتباره الإله الخالق، نجد أن التصور الأشموني جاء غامضاً فيما يتعلق بتسمية هذه العناصر الأربعة الأساسية، و بكيفية التمييز فيما بين ذكر و أنثى لدرجة أن يتولد عنها عبر انقسامها إلى ذكر و أنثى ذلك "الثامون" الذي عدوه أصل الإله.[3]

لعل ذلك التمايز بين وضوح المذهب الشمسي و الغموض الفلسفي الذي تميز به المذهب الأشموني "الهرموبوليسي"، هو ما ساعد على ذيوع الأول و انتشاره في الأوساط الشعبية، بينما اقتصر الإعجاب بالمذهب الثاني على أوساط الخاصة والمثقفين، وربما يرجع ذلك إلى ما تضمنه التفسير "الهرموبوليسي" من عناصر فلسفية هامة.[4]

---

[1]- مصطفى النشار، المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية، ص (60،61).
[2]- جون ولسن، ما قبل الفلسفة، ص (67).
[3]- مصطفى النشار، المرجع نفسه، ص (62).
[4]- محمد غلاب، الفلسفة الشرقية، ص (47،48).

*** المذهب المنفي:**

- يُنسب هذا المذهب إلى مدينة **(منف)** التي أسسها الملك **"مينا"** مؤسس الأسرة الأولى في تاريخ مصر القديمة، لتكون عاصمة لمصر المُوحدة و مقراً لملكه، و قد ازدهرت (منف) في ذلك الوقت لمكانتها السياسية، و قد واكب مفكرو المدينة هذا الازدهار لمدينتهم فحاولوا إثبات تفوقها على ما عداها من المدن بقولهم إن معبد إلهها الإله **"بتاح"**، كان الميزان الذي وزنت فيه مصر العليا و السفلى.[1]

وفقه إلهيات مدرسة **(ممفيس)** هو نقش على حجر محفوظ الآن في **"المتحف البريطاني"** ويحتوي على آراء المصريين القدماء بشأن الإلهيات والكوزمولوجيا (نظرية عن أصل الكون وبنيته ونواميسه) والفلسفة، ويرجع تاريخه إلى عام **(700 ق.م)**، ويحمل اسم فرعون مصري يقرر فيه أنه استنسخ نقشاً لأسلافه. وأمكن التحقق من هذا الرأي على أساس اللغة ونظام ترتيب النص. ولهذا يرجع تاريخ النص الأصلي لفقه إلهيات مدرسة **(ممفيس)** إلى فترة مبكرة جداً من التاريخ المصري أي الزمن الذي أقامت فيه الأسر الأولى عاصمتها الجديدة في **ممفيس: (مدينة الإله بتاح)** فيما بين **(3500،4000 ق.م)**[2]

و لعل ذلك الاعتقاد يرجع إلى المكان الوسط الذي احتلته مدينة (منف) منذ تأسست حوالي (ق 32ق.م)، كواسطة عقد لكل من أقاليم "الدلتا" و أقاليم "الصعيد"، أي فيما بين (مصر العليا) و (مصر السفلى)، و بالطبع فقد نشط أهل الفكر في (منف) حتى يقدموا مذهباً فكرياً جديداً، ينطوي بداخله تلك التفسيرات السابقة، وبحيث يتجاوزها جميعاً بسمو ما فيه من تصورات لمسألة الخلق و كيفية نشأة الوجود، و لا شك أن نقطة البداية في هذا المذهب تنطلق من أمرين:

أولهما: الإعلاء من شأن مدينتهم و أربابها المحليين خاصة أقدمها جميعاً الإله "بتاح"، الذي كان يُنظر إليه على أنه – حسب معنى اللفظ – الفتاح أو الخلاق رب الأرض العالية.

ثانيهما: احتواء المذهبين السابقين بنقدهما تارةً و تأويلهما ليُصبحا جزءاً من مذهبهم الخاص تارةً أخرى.

و من هنا بدأت تساؤلات و تأملات، وربما كانت أول هذه التساؤلات إذا كان أصحاب المذهبين السابقين قد شبهوا ظهور إلههم الخلاق بظهور رابية أو ربوة عالية طافية في وسط مائي، وسواء قد ظهر الإله مباشرة في هذا الوسط كما يرى أصحاب المذهب الشمسي، أو ظهر بعد أن حلقت عناصر الوجود أو أرواحه الثمانية تلك "الدحية" التي خرج منها الإله لأول مرة، فإن الناس قد صدقوا هذه الآراء و اعتنقوها.[3]

1- مصطفى النشار، المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية، ص (64).

2- جورج جيمس، التراث المسروق (الفلسفة اليونانية فلسفة مصرية مسروقة)، ص (134).

3- مصطفى النشار، المرجع نفسه، ص (64،65).

إذا كان كذلك، فلماذا لا تكون تلك الربوة العالية الطافية مدينة (منف) ذاتها، أو على الأقل جزءا معيناً منها، و لا سيما أنها كانت بالفعل أرضاً طافية في بداية أمرها قبل أن يُحول عنها **"الفرعون"** فرع (النيل) و يجنبها طغيان النيل عليها، ذلك الطغيان ألفيضاني الذي كان يحولها في الزمن القديم إلى ما يشبه المستنقع الكبير و يجعل من أرضها أشبه بالجزيرة الطافية، و إذا كانت مدينة (منف) هي ذاتها تلك الربوة العالية الطافية في بداية أمر الخليقة، فلماذا لا يكون ما حدث فيها من عمران متتابع و منتظم منذ إنشائها على يد الملك "مينا" قد حدث عن تدبير إلهي حكيم و ربما هذا التدبير مماثلاً لما حدث فيها عند نشأة الوجود لأول مرة؟ لقد تساءل حكماء (منف) كذلك عن "أتوم" و قدرته الخلاقة، فقد قال أصحاب المذهب الشمسي بأنه قد خلق من نفسه أرباب الطبيعة أو ما سموه (التاسوع العظيم)، فكيف تم خلق بقية الأرباب الأخرى التي عبدها المصريون القدماء و هي كثيرة؟ و كيف ظهر العمران في الأرض؟ و كيف تميزت الكائنات المختلفة بعضها عن بعض؟ أيمكن أن تكون هذه الأشياء جميعاً قد حدثت من تلقاء نفسها؟ أما كان للإله الخالق تأثير في إيجادها و تنظيم العالم المعمور و إصدار التشريعات و النواميس التي يعمل الجميع و يعيشون وفقاً لها؟ لقد تساءل حكماء (منف) أحيراً عن تلك الإرادة المدبرة التي فكرت في خلق العالم و في تنظيم أموره، إن تلك الإرادة المدبرة المفكرة فيما وراء الوجود لا بُد لها أنها فكرت و دبرت قبل أن يصدُر أمر الخلق ذاته، إذ لا بُد أن يكون التفكير و التدبير قد سبقا الخلق و التعمير.[1]

و هكذا وصل فلاسفة (منف) إلى افتراض وجود الإله الخالق و إلى افتراض أنه قد فكر و دبر قبل أن يخلق و يعمر، و أنه قد شمل الكون و الكائنات برعايته، و رسم لكل ما في العالم قدرهُ و أفعالهُ، و قد عبروا عن ذلك في وثيقة صيغت حوالي عام **(700ق.م)**، و إن كل الدلائل الأثرية و الجغرافية و اللغوية، تشير إلى أن هذه الصياغة قد اشتقت من نص يرجع تاريخه إلى أكثر من **(2000سنة)** قبل هذا التاريخ.[2]

يبدأ النص (المنفي) بابتهال مُوجه إلى الإله "بتاح"، أعلن (المنفيون) في إطاره أن الأرباب الذين عرفهم البشر فبله لم يكونوا غير **"صُور من بتاح"**، و أنه هو الرب الخلاق القديم، و أنه مُنذ استوى على عرشه العظيم لأول مرة، كان روحاً للكيان المائي بكل ما احتواه من ذكر و أنثى، كما كان رُوحاً لليابس القديمة أو الأرض الطافية على وجه المياه.[3]

1- مصطفى النشار، المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية، ص (66).
2- عبد العزيز صالح، فلسفات نشأة الوجود في مصر القديمة، ص (36).
3- مصطفى النشار، المرجع نفسه، ص (67،68).

ويتألف النص من ثلاثة أجزاء متكاملة، يمثل الجزء الأول **"آلهة العماء"** البدائي، ويمثل الجزء الثاني آلهة **"النظام والترتيب"** ويمثل الجزء الثالث **"كبير الآلهة"** أو رب الأرباب (اللوجوس) الذي يرجع له إنجاز عملية الخلق، وقد جاء في نص (الجزء الأول): "بتاح كبير الآلهة حمل في قلبه كل ما هو موجود وبكلمته خلقهم جميعاً، ظهر أولاً من مياه المحيط الأزلي نون في صورة تل سرمدي، وعقب التل مباشرة ومرادف له وإلى جواره ظهر أيضاً الإله أتوم من المياه واستوى فوق بتاح (التل)، وبقي في الماء أربع أزواج من الأرباب الذكور والإناث وهم الثماني الربوبي الموحد (ogdoad) ويحملون الأسماء التالية:

1- **نون ونونيت** أي محيط المياه الأزلي والسماء المقابلة.

2- **هوه وهوهيت** أي اللامحدود وضده.

3- **كوك وكوكيت** أي الظلمة وضدها.

4- **آمون وآمونيت** أي الخفي وضده.[1]

و بناءاً على ما سبق، بدأ (المنفيون) يصفون الإله "بتاح" بصفات جديدة تميزت عن كل الأرباب بصورة غير مسبوقة[2]، فاعتبروه بمثابة **"القلب و اللسان"** لهم جميعاً[3]، و ليس "القلب و اللسان" بالشيء الهين، فما من شك أن للقلب و اللسان سيطرة في كل جسد، و الدليل قائم في كل صدر و كل فم للأرباب، و البشر و الأنعام و الزواحف على السواء، و إن طلبنا منهم الدليل الأقوى على صحة ما يقولونه قالوا: **" إن ما تشهدُه العينان و تسمعُه الأذنان و تشممُه الأنف، إنما يرتقي جميعاً إلى القلب، أما عن الفم فهو الناطق بكل شيء".** ولا ينبغي أن نقلل من شأن هذه الصفات، فهما- أي وصف الإله بأنهُ بمثابة "القلب و اللسان" لكل الآلهة- ليسا مجرد استعارتين تقليديتين، فالمصريون القُدامى كانوا يقصدون بلفظة **"القلب"** شيئاً أكثر شبهاً بالعقل أو الإدراك، في حين يُشيرون إلى **"اللسان"** بالحديث أو التعبير، و بالتالي فليس معنى أن الإله (بتاح) هو قلب و لسان الآلهة أنه **" مجرد مترجم للآلهة في جلسة عمومية، بل هو العقل المُقدس ذاته المشترك في عملية الخلق بتقديم فكرة ثابتة عن أفكاره"[4]** – على حد تعبير (توملين)-

---

1- جورج جيمس، التراث المسروق (الفلسفة اليونانية فلسفة مصرية مسروقة)، ص (134،135).
2- توملين (أ.و.ف)، فلاسفة الشرق، ترجمة: عبد الحميد سليم، دار المعارف، القاهرة (مصر)، (ط2)، 1980، ص (37).
3- عبد العزيزصالح، فلسفات نشأة الوجود في مصر القديمة، ص (40).
4- توملين (أ.و.ف)، المرجع نفسه، ص (38).

إن الإله إذن هو الذي يفكر في الخلق، و ينطق بما فكر فيكون الخلق ذاته، و هذا ما تشير إليه الفقرات التالية من النص (المنفي) حيث يقول فلاسفة (منف):**" و هكذا إنما هو في الأصل قلب أو (عقل) أرسل الآيات جميعاً، و إنما هو كذلك لسان أزلي على ترديد ما تدبره الفؤاد، فعن طريق الفكر إذن و النطق من بعده بدأ الخلق، فخلق الأرباب جميعاً، و آتوم و تاسوعه أيضاً، ثم حدث أن أفضت كل كلمة ربانية تدبرها العقل الإلهي و أمر بها اللسان إلى أن تتابع خلق الأنفس و تقرر شأن الأطياف الحوارس، و توفرت الأقوات جميعاً و الميزات جميعاً و تقرر ما يسُتحب من أمور الناس و تقرر ما يُكره، و حق أن تُوهب الحياة لمن يعمل بالسلم، و الفناء لمن يتحمل بالإثم، وفق الناووس الذي تدبره العقل و خرج باللسان فقدر لكل شيء قدره، أُنجزت الأمور جميعها، و أبدعت الفنون جميعها و توفر نشاط اليدين و سعي القدمين و خلجات الأعضاء كلها".**[1]

إن أصل الوجود في نظر فلاسفة (منف) هو الإله الخالق "بتاح"، أما كيف كان ذلك فهو الأمر اللافت للنظر و الاعتبار في رؤيتهم، فالإله فكر بعقله أو قلبه، و من ثم أدرك الخلائق و طبيعة كل مخلوق ثم نطق الكلمة بلسانه فكان تمام أمر الخلق، و لا شك أن الأرباب كانوا أول ما صدر عن الإله "بتاح" حسبما يشير النص، فهو خلق أول ما خلق الأرباب جميعاً بما فيهم الإله "آتوم" و تاسوعه، ثم تتابع بعد ذلك أمر الخلق، فخلقت الأنفس أو الأرواح الحارسة كما خلقت كل الأشياء و الكائنات التي تتبع الحياة على هذه الأرض و بها عمرت الأرض و استمرت الحياة".[2]

ومن خلال تنظيم الكون على هذا النحو نصبح في وضع يسمح لنا باستنتاج الفلسفات التالية:

أ) الماء مصدر كل شيء حي.

ب) الخلق إنجاز تحقق بفضل وحدة مبدأين خالقين: **بتاح وآمون** أي وحدة **(العقل Nous)** مع (اللوجوس) كلمة الخلق.

ج) أتوم هو الصانع الأول أو الإله الوسيط في عملية الخلق، وهو أيضاً إله الشمس أو إله النار.

د) المبادئ المتضادة تحكم حياة الكون.

ه) عناصر الخلق هي **"النار" (أتوم) و"الماء" (نون) و"التراب" و"بتاح" أو (تاتجينين Tatjenen) و"الهواء".**[3]

1- عبد العزيز صالح، فلسفات نشأة الوجود في مصر القديمة، ص (41).
2- مصطفى النشار، المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية، ص (69).
3- جورج جيمس، التراث المسروق (الفلسفة اليونانية فلسفة مصرية مسروقة)، ص (135،136).

*** المذهب الواستي:**

هو نسبة إلى مدينة **"واست"** القديمة التي هي **"الأُقصر"** حالياً، والتي عُرفت في الزمن القديم باسم **(واست)** و قد عرفها اليونان باسم **(طيبة)**، بينما أطلق عليها العرب اسمها الحالي مدينة (الأُقصر).

لقد أسلمت المذاهب السابقة نفسها إلى مفكري هذه المدينة التي تهيأ لها حظاً واسعاً من السيادة خلال فترات التاريخ المصري القديم في عصر الدولة الوسطى و الدولة الحديثة، و قد تطور بها الحال إلى أن أصبحت كبرى عواصم الشرق القديم بدون منازع، بعد أن أصبحت عاصمة الإمبراطورية المصرية الكبرى خلال أزهى فترات الدولة الحديثة، وقد نشط فلاسفتها ليمزجوا بين التفسيرات القديمة لأصل الوجود و كيفية الخلق بطريقة جديدة، أعطت السيادة لإله مدينتهم الأعظم الإله **"آمون"**، و جعلت من مدينتهم أم المدائن و سيدتها.[1]

لكن، يذهب بعض الباحثين إلى أن الموطن الأصلي للإله (آمون) إنما كان في مدينة "الأشمونيين"، وأن ملوك **"الأسرة الحادية عشرة والثانية عشرة"**، هم الذين أتوا به إلى **(طيبة)**، ثم أخذت شهرته تنتشر حتى طغى على جميع الآلهة المصرية، وعلى أي حال فلقد تمكن **(آمون)** من أن يتبوأ مكانة ممتازة في الدولة، عندما نجح **(أمنمحات الأول) (آمون في المقدمة)** من تأسيس **"الأسرة الثانية عشرة"**، بعد أن كان إلهها يكاد يكون مجهولاً، أو على الأقل لم يكن له نفوذ سياسي في **مصر**، ثم سرعان ما أصبح بعد حين من الدهر الإله الرسمي للدولة.[2]

و تُصور لنا النصوص القديمة كيف حاول أهالي (واست) تمجيد مدينتهم و جعلها أصل المُدن و مركز الخلق و المدينة، لقد قالوا في بعض ما كتبوه عنها:

" واست هي الأحق من كل مدينة، توفر فيها المياه و اليابس منذ الأزل و زادتها الرمال فطوقت مزارعها و ارتفعت ببطاحها على ما يُشبه النجد.

و بذلك تكونت الأرض و أمكن أن يحدث فيها الخلق.

و بدأ الاتجاه إلى نشأة البلدان بمعناها الصحيح.

و غدا لفظ "المدينة" يُطلق من بعد على أسماء هذه البلدان تحت كفالة "واست" أو تحت كفالة العين المقدسة لإله الشمس بمعنى أصح.

و كانت جلالتها أي عين رع قد وفت (على مدينة واست) و هي كاملة متكاملة نيرة رغبة في أن تحكم أمر العالمين فيها.

هي مدينة قيل عنها في الأزل: ما أعزها باسمها "واست" و قيل أنها مدينة سوف تخلد، و أنها سوف تنعم باسمها "وجات" و لا سيما أنه اسم العين اليُمنى لإله الشمس بالذات ....[3]

---

[1]- مصطفى النشار، المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية، ص (70).
[2]- سمير أديب، موسوعة الحضارة المصرية القديمة، ص (201).
[3]- عبد العزيز صالح، فلسفات نشأة الوجود في مصر القديمة، ص (43).

على هذا النحو الأسطوري، صور فلاسفة "واست" أنها الأحق أن تكون أقدم المُدن و أعظمها، و أنها هي التي كانت أول ما ظهر على التل الأول الذي أطل برأسه من الماء، أي أنها أصل الأرض و موطن الخليقة الأول.[1]

و إن كان ذلك كذلك، فإن الإله "آمون" يُصبح باعتباره إله هذه المدينة الإله الأول و الأعظم، و هو خالق و رب العالمين و هو بداية الوجود و هذا ما عبر عنه فلاسفة المدينة في نص هام فقالوا فيه:

" وُجد آمون منذ البداية دون أن تعرف له نشأة، فلم يُوجد قبله إله أو يُوجد معه إله يستطيع أن يصف له هيأة، و لم تكن له أم تبتدع له اسماً أو ولد ينجيه و يقول ها أنذا......

و حسبه أنه الإله و أنه وُجد من تلقاء نفسه و أن الأرباب جميعاً تتابعوا من بعده.....

و الحق أنه عجيب، كثير الأوضاع، افتخر الأرباب جميعهم بأنهم منه ابتغاء أن يستزيدوا من بهائه و ربوبيته حتى لقد بلغ من ذلك أن (رع) ذاته اتحد ببدنه و هو قديم النشأة في (أون)

و قال عنه الناس إنه "تاتنن" (رب منف القديم)

و أنه "آمون" الذي صدر عن "نون"

و أنه من هدى الخلائق أجمعين، و أن له صورة أخرى بين أعضاء الثامون و أنه هو الذي أنجب من استولدوا الشمس من الأرباب الأولين

و أنه من استكمل ذاته في هيئة "أتوم" و أنه كان معه بدناً فرداً

و أنه رب العالمين و أنه بداية الوجود".[2]

و أهم ما ينبغي نلاحظه من ذلك النص، بالإضافة إلى ما سبق الإشارة إليه، أن الإله (آمون) رغم أنه الإله الذي خلق نفسه بنفسه و أوجد بقية الآلهة، إلا أنه قد اتخذ في حياته القديمة أكثر من صورة، فبعد أن أوجد نفسه بنفسه و استمر إلهاً واحداً فرداً لمدة قدرها لنفسه، و تحير لنفسه مكاناً قدسياً استقر فيه متخفياً باسمه و و شكله و المقر الذي استقر فيه، و هذا ما عبر عنه أتباعه حينما لقبوه **"بآمون رنف"** أي خفي الاسم، و **"كم آنف"** أي الذي أتم عهده، و على كل حال فلقبه الأشهر **(آمون الخفي).**[3]

هذا وقد مزج الإله **(آمون)** والإله **(رع)** تحت اسم **"آمون رع"** منذ بداية **"الأسرة الثانية عشرة"**، بغية أن يكتسب **آمون** صفات **رع** ونفوذه القوي بين الناس، وحتى يمكن عبادته وقبول طبيعته كـ**"رع".**[4]

بعد ذلك ارتأى أن يتخذ وضعاً جديداً، فغادر هذا المقر الخفي ليتخذ مقره الجديد في (أون) وسط ذلك الكيان المائي العظيم "نون"، ثم اتخذ صورة الإله الخلاق الفتاح (تاتنن) و هو اسم آخر للإله "بتاح" إله (منف) القديم، بمعنى رب الأرض العالية الناهضة.

---

[1]- مصطفى النشار، المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية، ص (71).
[2]- عبد العزيز صالح، فلسفات نشأة الوجود في مصر القديمة، ص (44).
[3]- مصطفى النشار، المرجع نفسه، ص (73،72).
[4]- سمير أديب، موسوعة الحضارة المصرية القديمة، ص (201).

و لم يكتف بذلك، بل اتخذ كياناً جديداً وسط "الثامون الإلهي" المقدس عند أصحاب المذهب الأشموني، فضلاً عن أنه منذ البداية قد اتخذ هيئة "رع" حينما اتحد الأخير ببدنه فأصبح من ألقابه (آمون رع)، تنويهاً بأُلوهيته للشمس و ما يصدُر عنها من حرارة و نور.

إن هذه الصورة المتعددة التي اتخذها الإله (آمون) لنفسه أو التي أصبغها عليه أتباعه، إنما استهدف بها حسب **(عبد العزيز صالح)** التبشير بدعاوى أربعة هي:[1]

1) إن رب الشمس الذي عهد الأرباب الأوائل بخلافتهم إليه، لم يكُن (رع) أو (رع أتوم) كما أدى فلاسفة (أون)، و إنما كان (آمون رع) الذي يرتد نسبه أصلاً إلى مدينة (واست) وحدها.

2) إن ما انتهى إليه (آمون رع) في نهاية المطاف، أنه قد جمع شتى مظاهر السلطة و القوة و التقديس التي سبق و أن افترضها أصحاب المذاهب الأخرى في مُدن (أون) و الأشمونيين و (منف) لأربابهم جميعاً.

3) إن (آمون رع) و إن بدا للناس في وضعه الأخير خليفة لأرباب الخلق الأوائل ووريثاً لعروشهم جميعاً، إلا أنه في حقيقة الأمر كان الفيض الأخير للإله الخلاق القديم "كم آتف" بعد أن تلبس أحد الأوضاع التي قدرها لنفسه و بنفسه.

4) و أخيراً لقد أراد فلاسفة (واست) القُدامى أن يُؤكدوا للناس أن الروح الإلهية التي اعتادوا أن يتعبدوا لها في معابد (واست) العديدة، لم تكن في الحقيقة غير روح واحدة و إن تعددت أوضاعها، فهي قد صدرت جميعها عن واحد، وارتدت إلى واحد.[2]

وإذا كان من العسير على الناس فهم معنى الخفاء والغموض التي يقدمها اسمه، ولم يكن المزج بالإله (رع)، يرجع إلى طبيعة **آمون** كإله الهواء، وأن القوة الخلاقة في الهواء ومثيلتها في الشمس واحدة، وأن رفعه إلى مرتبة الإله الأعظم كان على أساس أنه لا توجد قوى في الكون تبارى مزج **(الشمس والهواء)**، ذلك لأن صفة **آمون** كإله للهواء لم تظهر إلا متأخراً عند مزجه بـ**"رع"**، وذلك منذ بداية "الأسرة الثانية عشرة".[3]

1- مصطفى النشار، المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية، ص (72،73).
2- عبد العزيز صالح، فلسفات نشأة الوجود في مصر القديمة، ص (45).
3- سمير أديب، موسوعة الحضارة المصرية القديمة، ص (201).

و الحقيقة أن هذا التفسير (الواستي)، بحكم ما تيسر لأتباعه من سطوة و سلطان و بحكم ما تيسر لمدينة (واست) القديمة من مكانة مركزية في التاريخ المصري القديم، خاصة في العصرين الوسيط و الحديث، قد ظل المذهب الأشهر و الأكثر شيوعاً بين المصريين، و ربما يرجع ذلك بالإضافة إلى ما ذكرناه إلى سببين رئيسيين هما:

أولاً: أنه قد لخص كل المذاهب السابقة و اعتبرها نابعة من المذهب (الواستي)، باعتبار أن الإله (آمون) كان هو الأول الخفي، و كان هو الآخِر الظاهر الذي اتحد بإله الشمس و إله الأرضين جميعاً.

ثانياً: أنه كان الأقرب إلى تصور المصريين القدامى في تلك الحقبة التاريخية التي كان لا يزال الناس فيها لا يتصورون الربوبية، إلا على هيئة أرباب متعددة يرأسها جميعاً الإله الأعظم، و بذلك كان التصور السائد رغم اختلاف المدن التي قدم أهلُها التفسيرات و رغم اختلاف تسميتهم للإله الأعظم.[1]

وتعليقاً على ما قدمه قدماء المصريين من تفاسير وتصورات وأناشيد للآلهة بناءًا على ما تقدم حول أصل الوجود والعالم الطبيعي، يقول (جيمس هنري بريستد):

"إن إله المصريين، هو إله كل الناس وكل العالم، وأبو وأم كل ذلك الذي صنعه، وكل الناس يعترفون بحكمه...بذاك الذي أوجد حياتهم...وقوته الخالقة المستمرة...هي مصدر الحياة الدائم والقائمة بأودها...وكل هذا يكشف عن تبين حضور الله في الطبيعة...كالذي نجده بعد ذلك بألف سنة في مزامير العبرانيين وفي شعراء الطبيعة...فهو ينام ولكن لا يموت أبداً وهو الحاكم الطيب...والراعي الصالح...(الذي يفضل) الوجل على المتعالي والمتكبر...(و) يلبي صرخة المسكين المصاب، المغلوب على أمره..".[2]

---

[1]- مصطفى النشار، المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية، ص (73،74).

[2]- جيمس هنري بريستيد، تطور الفكر والدين في مصر القديمة، ص ص (425...474)، نقلاً عن: حمدي فضل الله، بداية التفلسف الإنساني (الفلسفة ظهرت في الشرق)، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت (لبنان)، (ط1)، 1994، ص (83).

خاتمة:

- و من خلال ما تطرقنا له، يمكننا الخروج بخلاصة مفادها أن قدماء المصريين فسروا أصل الوجود و العالم الطبيعي تفسيراً ميتافيزيقياً ما ورائياً، أو ألهوياً إن صح لنا ذلك، فرغم اختلاف الرُؤى للمذاهب الأربعة من حيث أنه كان لكل مذهب إله خاص به، إلا أنها تشترك في ردها لأصل الوجود إلى الآلهة في حد ذاتها، بحيث لم نجد مذهباً من المذاهب الأربعة يرد أصل الوجود إلى مبدأ مادي **" كالماء"** أو **"الهواء"** مثل ما هو قائم في الفلسفة اليونانية، فرغم قولهم بالكيان المائي لكنهم قصدوا به العدم المطلق اللانهائي أو الخواء مثلما عبر عنه بعض الباحثين أو **"نون"** مثلما ورد في نصوص قدماء المصريين، فالسبب الحقيقي لوجود العالم الطبيعي في مصر القديمة هو **"الآلهة".**

هذا من جهة، و من جهة أخرى لمسنا في بحثنا هذا لموضوع الطبيعة في الفكر المصري القديم، أن الطبيعة أخذت أكثر من بُعدها الفلسفي و المعرفي كمبحث من مباحث الفلسفة، إذ ربطها مفكري المذاهب الأربعة بأبعاد سياسية و دينية و إيديولوجية، و هذا ما جعل التفكير في موضوع الطبيعة عندهم يتخذ شكلاً تنافُسياً لكي يُبين كل مذهب جدارته الفكرية في تفسير أصل الوجود و العالم الطبيعي، و يخط سطوراً من ذهب في تاريخ الفكر الفلسفي.

و في الأخير يمكننا استخلاص ما للحضارة المصرية القديمة من وزن في موضوع الطبيعة كمرجعية فلسفية، و قاعدة معرفية للبشرية جمعاء، سواءً للحضارات المعاصرة لها مثل **(الحضارة الصينية- الهندية- الفارسية...)**، أو اللاحقة لها **(كاليونانية- الإسلامية- الوسيطية....و حتى المعاصرة)**، بغض النظر إن كان هذا الحضور في المراحل اللاحقة لها قد أُعتبر أسطورياً، فحتى لو كان كذلك فإنه يمكن اعتباره كنقطة انطلاق لمحاولاتهم.

*** دعائم البحث:**

1- المصادر:

- جورج جيمس، التراث المسروق (الفلسفة اليونانية فلسفة مصرية مسروقة)، ترجمة: شوقي جلال المجلس الأعلى للثقافة، الإسكندرية (مصر)، (د.ط)، 1996.

- جون ولسن، ما قبل الفلسفة، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، منشورات دار مكتبة الحياة، بغداد (العراق) (ط1)، 1960.

- توملين (أ.و.ف)، فلاسفة الشرق، ترجمة عبد الحميد سليم، دار المعارف، القاهرة (مصر)، (ط2) 1980.

- J.h.breasted:development of religion and thought in ancien Egypt, new York, 1912.

2- المراجع:

- حمدي فضل الله، بداية التفلسف الإنساني (الفلسفة ظهرت في الشرق)، دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت (لبنان)، (ط1)، 1994.

- محمد غلاب، الفلسفة الشرقية، مكتبة البيت الأخضر، القاهرة (مصر)، (ط1)، 1937.

- مصطفى النشار، المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية، دار قباء للطباعة و النشر و التوزيع، القاهرة (مصر)، (ط1)، 1997.

4- الموسوعات:

- سمير أديب، موسوعة الحضارة المصرية القديمة، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة (مصر)، (ط1) 2000.

3- المجلات:

- عبد العزيز صالح، فلسفات نشأة الوجود في مصر القديمة، من مجلة "المجلة"، العدد 26، القاهرة (مصر)، فبراير 1956.

- جفري بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب القديمة، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، سلسلة عالم المعرفة، العدد 173، الكويت، ماي 1993.